

دفتر الحرب الأهلية يرسم الجحيم، منزويًا مختبئًا وراء شجرة!



« دفتر الحرب الأهلية » يرسم « جميل ملاعب » في كتاب جاء لبنة أخرى . في توثيق هذه الحرب : ولي رسم كل ايعادها .. فبعد الكتب الوثائقية المتعددة عن الحرب ومسبباتها ، وبعد الأعداد الخاصة التي اصدرتها المجلات الاسبوعية . وبعد كتب الصورة التي نشرتها أكثر من دار يجيء جميل ملاعب ، هذا القروي الجبلي ، ليؤرخ : على طريقته هذه الحرب .

كيف ؟ بالتخطيطات في رسم لوحات صغيرة بالريشة والحبر الصيني الأسود ، كي تكون الصورة أكثر تعبيراً عن الحزن وأكثر ملاصقة للواقع .. انه ، بكثير من الجهد يحاول أن يعطي معنى آخر لهذه الحرب ، معنى كونها ضد الإنسان أي إنسان ، ومعنى كونها ضد الحضارة وضد القيم الأخلاقية . ولكن من وجهة نظر تدوين العنف أينما كان ومن أية جهة جاء ، وهي بالتالي دفاع عن الفقراء والأطفال والامومة .. أكثر المتضررين بهذه الحرب .

جاء الدفتر من حيث الإخراج يشبه الى حد كبير دفتر رسوم الاولاد في مطلع دراستهم .. وهذا هو المقصود بالفعل ليعبر عن انطلاقاته الطفولية وبرأته في مشاهدة الحدث ثم الالتصاق به الى حد رسمه في الذاكرة قبل رسمه على الورق .

هذا شيء مهم . لكن الثغرة الأساسية في هذا الدفتر ، عدم معايشة الفنان حالة الحرب من داخل . انه يطل عليها من بعد ، من الجبل احياناً ، مختبئاً ، منزويًا عن نارها ، بعيداً عن تفجراتها التي كانت تأكل الأخضر واليابس . لذا جاءت بعض الرسوم باهتة ، لم تعش حرب اللحظة وراء اللحظة عندما كان الرصاص وكانت القنابل والمدافع لغة الصراع بعد أن صمتت كل اللغات الأخرى .

طبعاً ، في تقديم سمير الصايغ وعارف الرئيس أكثر من مجاملة ، لا بأس . لكنهما ، على كل حال ، في بعض هذا التقديم ، أراد كل منهما أن يدل جميل ملاعب على ثفراته بشكل غير مباشر اذا صح التعبير .

سمير صايغ : « كيف استطاعت هذه اليد ، أن تروي مثل هذا العذاب ؟ كيف احتملت اعادة الزمن مرتين . الحادثة مرتين ، المتشهد مرتين ، والمرة الأولى كافية

لكن عارف الرئيس يشير في المقدمة الى أن جميل ملاعب وضع هذه الرسوم بالابيض والأسود خلال الحرب الأهلية بين ١٩٧٥ - ١٩٧٦ ويصور مجملها مشاهد من الفضائع التي سجلتها اليوميات المخيفة لهذه المأساة في حياة المواطنين ، والتي رافقها الفنان في منطقة عاليه وجبل لبنان . وتركت اثرها في خطوطه وفي معالجة التأليف معالجة شاعرية ، تقراً في المفارقات الموجودة بين مختلف الدرجات الشفافة ، وتدل على حسن مرهف وحزن عميق » .

كلاهما ، عارف الرئيس ، وسمير الصايغ ، يدعمان الفنان ويحاولان في نفس الوقت توجيهه كل منهما في اتجاه متضارب .. تلك هي سمة الفن والنقد على كل حال .. الا انه من المفيد قوله ان رسوم ملاعب من حيث توليفاتها واشكالها على درجة من الفهم الواعي لهذا الفن .. الا ان اندماجها بالواقع ، اختراقه ، وهنا تبرز مهمة الفن المنسزم خصوصاً .

ان « دفتر الحرب اللبنانية » لم الفنان بالابيض والأسود . لكنه ليس الم الحرب .. التي كان احتراقها ووجهها أشد ايلاماً من هذد الصور البريئة .

بان تقذف الى القلب مذاق الخلل

ولون السراب . الى أن يقول : « ومن هنا نفهم هذا الصراع او اقتراب الاطراف المتناقضة جنباً الى جنب في حكاية واحدة : الحديث عن الموت والحديث عن مواجهة الموت . الحديث عن الالم والحديث عن الانتصار على الالم . باختصار الحديث عن الموت والحياة في ان معا ، أي كان القصد التوحد بحيث لا تصير الحياة عذاباً على الخسارة ولا يصير الموت شاهداً حقيقياً على الخسارة كان القصد يجري نحو التوحسد بحيث لا يعود البرء بقادر أن يفرق بين الوجهين . وجه الضحية ووجه الشاهد » .

جميل ملاعب . رسم . او شهد او بكى او اشار الى أنه كان يرى ويسمع ويشاهد وهذا بعضاً مما رأى وسمع وشاهد .

وربما ينتهي الجواب عند هذه الحدود وتنتهي معه الرغبة في السؤال من جديد الا أن المسرء يشعر انه هو أيضاً كان على الأرض نفسها وضمن الدائرة نفسها ، وانه يخاف كذلك من الإدلاء بشهادة: أن الدماء ما تزال تنبض وستبقى الى زمن طويل . انها بداية الطريق التي سوف تقودنا من جديد الى تلك الحكايات التي تبدأ برحلة الدماء عبر التراب لتطلع ورده في البساتين .